

عودة وباء الطاعون

2017-11-19 بروجيكت سنديكيت

كايل هاربر

نورمان، أو كلاهما - "انتشار وباء الطاعون المخيف في مدغشقر". هذا الخبر الأخير الذي نشرته جريدة نيويورك تايمز قد يبدو وكأنه خلاصة لفيلم مرعب. إن وباء الطاعون الذي يجتاح مدغشقر ليس مجرد وباء، ومن المؤكد أنه ليس شخصية خيالية هوليوودية. إنه الطاعون، الناجم عن بكتيريا يرسينيا بيستيس، عامل الطاعون الدبلي المعروف.

بالنسبة لمعظم الناس، يستحضر "الطاعون" صور من وباء العصور الوسطى المميت، وربما هناك شعور مطمئن غامض أن مثل هذه المخاطر القديمة لم تعد موجودة في العالم المتقدم. ولكن في السنوات الأخيرة، وبفضل عمل علماء الوراثة وعلماء الآثار والمؤرخين، نعلم الآن أن الحضارة الإنسانية والطاعون تربطهما روابط أعمق مما كان يفترض سابقا. والدروس المستفادة من دراسة هذا التفاعل التاريخي يمكن أن تعيد تشكيل طريقة تفكيرنا في الصحة العامة العالمية اليوم.

إن جميع الأمراض المعدية ناجمة عن مسببات الأمراض - البكتيريا والفيروسات والطفيليات والأوليات - وهي قادرة على تخريب أجهزة المناعة لدينا لفترة كافية لنصبح مرضى. هذه الكائنات هي نتاج تطورها البيولوجي، وقد يكون تاريخ تطور الطاعون (جنباً إلى جنب مع فيروس نقص المناعة البشرية) السر الأكبر لمسببات الأمراض المعروفة علمياً حتى الآن.

وبكتيريا الطاعون، في شكلها الأكثر تدميراً، تعود لحوالي 3000 سنة. وقد تطورت في آسيا الوسطى كمرض قوارض وقد كان البشر ضحايا عرضيين. من وجهة نظر الجرثومة، فنحن البشر ضعفاء، لأننا نموت بسرعة وعادة ما نكون غاية لا وسيلة لنقل الوباء. وينتشر الطاعون أساساً من لدغة البراغيث،

وقبل بضعة آلاف من السنين، اكتسبت البكتيريا طفرة جينية جعلتها تنتشر بفعالية وبسرعة. وقد أدى هذا التكيف إلى تقوية الوباء، الذي أثبت أنه كابوس بالنسبة للقوارض والبشر الذين يعيشون بالقرب منها.

وبفضل الأدلة الجينية الجديدة، يمكننا أن نحدد بثقة أكبر متى يتكرر هذا الكابوس. وكان من بين أكثر النتائج إثارة للدهشة في السنوات الأخيرة انتشار الطاعون في عينات من العصر الحجري ومجتمعات العصر البرونزي في أوروبا وآسيا الوسطى. وفي حين أنه لا يزال الدور الذي يلعبه الطاعون في فشل تلك المجتمعات غير واضح، فمن المنطقي الافتراض بأن هذا المرض أثر تأثيراً طويلاً على تاريخ البشرية.

ومن المؤكد الآن أن بكتيريا يرسينيا بيستيس كانت في الواقع السبب المرضي المسؤول عن اثنين من الأوبئة الأكثر تدميراً على الإطلاق. جاء الطاعون الأسود، الذي يعيش في أذهان الناس حتى يومنا هذا، من آسيا الوسطى عام 1340، وفي غضون بضعة سنوات، هلك ما يقرب من نصف سكان المناطق التي أصابها. ثم استمر المرض لعدة قرون أخرى، مما أسفر عن مقتل الكثيرين.

ولكن هذه الحلقة بأكملها تُعرف بشكل صحيح باسم "الوباء الثاني". بدأ أول وباء سنة 541 م، في عهد الإمبراطور الروماني جستنيان. وقد عُرف تفشي المرض بالطاعون الجسدي، ومثل الطاعون الأسود، تسبب في دمار هائل من آسيا الداخلية إلى شواطئ الأطلسي في غضون بضعة سنوات. وكان مجموع الوفيات يقدر بعشرات الملايين، وكان المعاصرون المدمنون على يقين أنهم على وشك الموت.

وكما هو الحال مع الطاعون الأسود، تساءل المؤرخون في وقت لاحق عما إذا كان مرض القوارض يمكن أن يسبب الدمار على هذا النطاق. ولكن في السنوات الأخيرة، تم العثور على آثار وراثية للمرض في قبور القرن السادس، وأدلة الحمض النووي تدين بكتيريا يرسينيا بيستيس بالقتل الجماعي القديم بشكل نهائي كما هو الحال في قاعة محكمة حديثة. تسبب الطاعون في أزمة ديموغرافية أدت إلى إسقاط "الإمبراطورية الأبدية الرومانية".

كانت جائحات الطاعون معقدة للغاية من الناحية الإيكولوجية. وشملت هذه الجائحات ما لا يقل عن خمسة أنواع، في ترتيب محفوف بالمخاطر: البكتيريا نفسها، مضيف الخزان مثل المرموط من القوارض أو الجربلات، وناقلات البرغوث، وأنواع القوارض في أماكن قريبة من البشر والضحايا البشرية.

فقد غادرت الجرثومة موطنها الأصلي في آسيا الوسطى. وفي حالة طاعون جوستينيان، يبدو أنه قد انتشر عن طريق استغلال شبكات الشحن في المحيط الهندي. وفي مرة داخل الإمبراطورية الرومانية، وجد بيئة قد تحولت من قبل الحضارة الإنسانية، جنبا إلى جنب مع المستعمرات الضخمة من القوارض التي تتغذى على حشرات العالم القديم الواسعة الانتشار. وساعد التوسع البشري القوارض على الازدهار، وأدت إصابات الفئران بدورها إلى تكثيف وإطالة أمد انتشار الطاعون.

هناك أدلة محيرة على أن تغير المناخ لعب أيضا دورا في انتشار الوباء الأول. قبل بضع سنوات من ظهور الطاعون على الشواطئ الرومانية، عانى الكوكب من أكثر الحوادث المفاجئة لتغير المناخ في السنوات القليلة الماضية. وقد أربك تشنج الانفجارات البركانية - في 536 م، عندما أعلن المؤرخون عن سنة بدون صيف، ومرة أخرى في 539-540 م - النظام المناخي العالمي. ولا تزال الآليات الدقيقة التي تمكن الأحداث المناخية من نشر وباء الطاعون موضع نزاع، ولكن الصلة لا لبس فيها، والدرس يستحق التأكيد: العلاقة المعقدة بين المناخ والنظم الإيكولوجية تؤثر على صحة الإنسان بطرق غير متوقعة.

إن الطاعون في مدغشقر اليوم هو فرع من ما يعرف باسم "وباء الطاعون الثالث"، وهو تشتت عالمي من بكتيريا يرسينيا بيستيس التي انتشرت من الصين في أواخر القرن التاسع عشر. لا يوجد هناك لقاح بعد لهذا المرض، في حين تكون المضادات الحيوية فعالة إذا ما استخدمت في وقت مبكر، والتهديد بمقاومة مضادات الميكروبات هو أمر حقيقي.

وقد يكون ذلك أعمق درس من التاريخ الطويل لهذه الآفة. إن التطور البيولوجي مكر وخطير. يمكن للطفرات الصغيرة أن تغير فوعة المُسبب في المرض أو قدرة انتقاله، لكن تطوره متواصل. قد نستطيع السيطرة على الطاعون اليوم، على الرغم من الأحداث في شرق أفريقيا. ولكن تاريخنا

الطويل مع هذا المرض يدل على أن سيطرتنا عليه واهنة، ومن المرجح أن تكون عابرة، وأن التهديدات على الصحة العامة في أي مكان تشكل تهديدا للصحة العامة في كل مكان.

* كایل هاربر، أستاذ كلاسيكيات ورسائل في جامعة أوكلاهوما، مؤلف كتاب مصير روما: المناخ، المرض، ونهاية الإمبراطورية.

<https://www.project-syndicate.org>

.....

* الآراء الواردة لا تعبر بالضرورة عن رأي شبكة النبا المعلوماتية